

لعلّ إظهار أكثر التّطوّع بالعمل الصّالح خير من إخفائه

بسم الله الرحمن الرحيم

يظنّ أكثر النّاس وجوب إخفاء التّطوّع بالعمل المشروع خشية الرياء، ولم أجد لذلك سنداً من الكتاب والسّنّة بفهم الصّحابة رغم استعائتي بالله ثم ببعض من يظنون هذا المظنّ، فلم يبق إلّا الاستحسان بلا دليل، وهو يريد المابتداع.

أمر واحد - فيما أعلم - ذنب الله ورسوله إليه وهو إخفاء الصّدقة على فرد أو أفراد معيّنين حتى لا تنكسر قلوبهم - فيما يظهر لي - ومع ذلك قال الله تعالى: {إنّ تيدوا الصّدقات فنعمنا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم}، وقال الله تعالى: {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولما خوف عليهم ولما هم يحزنون}.

ومدّح النّبّي صلى الله عليه وسلّم رجلاً تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ومدّح صاحب الصّدقة المعلنة في قوله: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"، ومدّح عثمان رضي الله عنه لتجهيزه علناً جيش المعسرة، وكان يسأل المتصدقين من أصحابه عما أبقوا لأهلهم فربما كان الجواب: النّصف أو الثلث أو: أبقى لهم الله ورسوله.

وإذا لم يوجد دليل من الوحي على وجوب إخفاء التّطوّع فلعلّ إظهاره اليوم أولى (بعد العمل بخاصّة، وللمنّفة على غير معين) بعد أن غلب علينا الشح والغفلة نستغفر الله ونسأله الهداية.

وأكثر ما يرى النّاس إخفاءه بعد النّفقة: التّطوّع بصدقة النّافلة، وقد يستدلّون بما ورد عن النّبّي صلى الله عليه وسلم: أنّ خير صلاة الرّجل النّافلة في بيته، ولكنّه بين السبب: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً.

وعلى أيّ حال، فهم يقترفون معصية أشنع: وأكثرهم يخالفون منطوق الحديث ومفهومه فيما هو أعظم، فأكثرهم يتخذون القبور مساجد، ويتسابق علماءهم على التبرك بكناسة القبر (كما يقول المنفلوطي رحمه الله) ورأيت عمائمهم تطوف على القبر في كلّ مرة دخلت مسجد الحسين أو المشافعي في مصر، وما هو أسوأ في دول المنتمين للإسلام عدا السّعوديّة.

ومن لا يدعوا صاحب قبر ولا يندر له ولا يطوف بالقبر فهو لا ينهى عن الصّلاة في المسجد المبنيّ على قبر ولا يمتنع منها.

وأمر قد يتَّفَق عليه الجميع: إخفاء الدوتر، وإذا لم يظهر دليل من الوحي فلعل هذا مما يسمَّيه بعض الفقهاء: النَّسْك الأعجمي، فإنَّ الأعاجم - مثل الأعراب - أجدر ألبا يعلموا حدود ما أنزل الله لِعُجْمَتِهِم وعاطفتهم الدينية المباشرة، فيتبعوا الهوى والظن والعاطفة.

ومنذ فُتِح باب الاستقدام من بلاد المسلمين - وكلِّها فُتِن منذ قرون عديدة بوثنية المقامات والمزارات والمشاهد، وما دون ذلك من الابتداع في الدين - تسلَّلت إلينا - مع الفِرَق والأحزاب الموصوفة - خطأ - بالإسلامية، وقبلها وبعدها - بدعة إخفاء الذكر ومعها حديث لا يصح: خير الذكر الخفي.

وكان علماءنا وعوامنا يجهرون بالتَّهليل بعد الصَّلَاة المفضولة، وانفرد - فيما أعلم - ابن عثيمين رحمه الله برفع صوته بالتَّهليل والتسبيح والتحميد والتكبير كله بعد صلاة الفريضة مستدلاً بحديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصَّحيحين: لَنَا نعرف انتهاء الصَّلَاة برفع أصواتهم بالتكبير، ولو لمَّا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بعد الصَّلَاة لما نَقَلَ إلينا ما كان يقول.

وورد في صلاة التَطَوُّع بالليل أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفض صوته بالقراءة في صلاة الليل فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفعه قليلاً، وأن عمر رضي الله عنه كان يرفع صوته بالقراءة فأمره أن يخفض صوته قليلاً.

وهذا بيان قول الله تعالى: (وما تجهر بصلاتك ولما تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً)، ومثله قول الله تعالى: (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول)؛ فخبر الذكر ما يكون دون الجهر وفوق الإخفات، وفهمت من الجزيري في الفقه على المذاهب الأربعة أن أبا حنيفة والشافعي وأحمد رأوا أنه لا تجزئ قراءة المصلي ما لم يسْمَعْ نَفْسَهُ، ورأى مالك أنها تجزئ بتحريك المشفتين، قلت: وإذا فسِّر (الذكر في النفس) كما ورد في الآية والمحدث بأنَّه ذكر القلب دون اللسان والمشفتين (كما فهم من بعض العلماء) فكيف يكون القول (التلاوة والتسبيح والدعاء) وهو لم يَتَلْ فَظْ به؟ وكيف يرتل القرآن ويتغنَّى به ويخرج اللفظ من مخرجه؟ وكيف يفرق بين المسين والمصاد، وبين الطاء والضاد؟ وهلم جرا.

وكان القريب من مقام النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة يسْمَع قراءته وغيرها من الذكر في صلواته كلَّها؛ فنقلها الصَّحابة رضي الله عنهم وأرضاهم إلينا.

ولعل من يعلم أكثر من هذا يدلني عليه بدليله وفقهه، وله الأجر.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز الحصيَّان تعاوننا على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان، في 1434/12/8 هـ بمكة المباركة